

صور من مجتمع

القاهرة في العصور الوسطى (*)

بـم

دكتور سمير عبد الفتاح عاصور

استاذ كرسى تاريخ العصور الوسطى بجامعة القاهرة

يمتد تاريخ القاهرة في العصور الوسطى من سنة ٩٦٩ م حتى سنة ١٥١٧ م .
وفي هذه الحقبة التي قاربت خمسة قرون ونصف تماقت على حكم القاهرة ثلاث دول
كبوى لكل دولة منها طابعها الخاص المميز ، هى دولة الفاطميين ، ودولة
الايوبيين ، ودولة سلاطين المماليك .

وللمروف أن الحياة الاجتماعية تتصف دائماً بنوع من الثبات والاستقرار وبطء
التغيير بخلاف ما عليه الحال فى الحياة السياسية أو الحياة الاقتصادية .

وإذا نحن نظرنا إلى مجتمع القاهرة اليوم فإننا لآرى وجهها للمقارنة بين الأوضاع
السياسية والاقتصادية السائدة فيها ، وتلك التي كانت سائدة أيام الفاطميين
أو الايوبيين أو المماليك . ومع ذلك فإننا نلمس بعض الأوضاع الاجتماعية والعادات
والثقائيد التي نحرص عليها اليوم والتي حرص عليها أهل القاهرة أيام الفاطميين
والايوبيين والمماليك .

(*) محاضرة أقيمت بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية - ضمن موسم القاهرة الثقافي
بمناسبة مرور ألف عام على إنشاء مدينة القاهرة - وذلك مساء الاثنين ٢٩ إبريل ١٩٦٩
بمقر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

ومن هذه المقدمة نخرج بحقيقة كبرى هي أن مجتمع القاهرة احتفظ بقدر ثابت من صورته طوال المصور الوسطى ، رغم تماقب ثلاث دول عليه في تلك المصور . ولا تقصد بذلك مطلقا اتفاق مجتمع القاهرة في تفاصيله أيام الفاطميين مع ما كان عليه أيام - الايوبيين أو أيام المماليك ، فلكل دولة من هذه الدول لثلاث ظروفها الخاصة السياسية والاقتصادية وربما العقائدية ولذهبية التي عكست صورتها على حياة العاصمة وتركزت أثرها في مجتمعها ، مما جعل هناك قدرا متفاوتا من التباين في بعض الأوضاع الاجتماعية بين الدول للشار إليها . وإنما كل ما قصدناه هو تأكيد حقيقة هامة هي وجود قدر كبير مشترك من الأوضاع الاجتماعية ظل سائدا في مجتمع القاهرة طوال المصور الوسطى ، بل ربما المصور الحديثة . وترجع بعض هذه الأصول للمشتركة إلى ظروف البيئة التي تمتد بميدا في بطون التاريخ ، في حين يرجع البعض الآخر إلى الطابع العام للمجتمع العربي الاسلامي وماساده من تقاليد اجتماعيه مشتركة في جميع انحاء الوطن الاسلامي الكبير تحت تأثير تعاليم الاسلام وآدابه .

ولا ينبغي في هذا البحث ذلك الطابع العام للحياة الاجتماعية في القاهرة طوال المصور الوسطى أو ذلك التقدر المشترك من التقاليد والمعادن التي كيفت الحياة العامة في القاهرة في تلك المصور ، بقدر ما تمنى الإشارة إلى الطابع الخاص للحياة الاجتماعية في القاهرة على عصر كل دولة من الدول الثلاث التي تماقبت في حكم مصر في المصور الوسطى ، مع بيان العوامل التي تحمكت في تكييف الحياة الاجتماعية بالقاهرة أيام الفاطميين أو الايوبيين أو سلاطين المماليك ، كل على حدة

ولعل أهم ما يميز الحياة الاجتماعية في القاهرة على عصر الخلفاء الفاطميين للبالغة في أحياء الاعياد واللوازم ، وهي ظاهرة تستحق منا لوقفه خاصة لتعليقها . لقد قال البعض أن ثراء الخلفاء الفاطميين - وخاصة في المصور الأول لتلك الدولة - كان

الدافع الاساسى لذلك الاسراف وتلك للبالغة ، ولسكتنا نسمع عن بعض حكام مصر السابقين واللاحقين ممن كانوا لا يقلون ثروة عن الخلفاء الفاطميين الأوائل ، ومع ذلك فإنهم لم يسرفوا في إحياء الاعياد واقامة الحفلات ومد الاسمطة والولائم مثل اسرف الفاطميون . ولا يخفى علينا أن بعض ألوان الطعام وبعض المعاديات والتقاليد للارتبطة بالاعياد والحفلات والتي ما تزال قائمة في مجتمعتنا حتى اليوم إنما ترجع جذورها إلى أيام الفاطميين بالذات فما هو التعليل العلمى السليم لهذه المظاهر ؟ ؟

أن الأمر في نظرنا لم يكن مجرد ثروة وافره نعم بها خلفاء الفاطميين ولم يحدوا بحالا لتبديدها سوى للبالغة في إحياء الحفلات ومد الاسمطة واقامة الحفلات . وإنما كان الأمر - من وجهه نظرنا - أبعد من هذا بكثير . لقد قامت الدولة الفاطمية على أساس الدعوة لمبدأ جديد ومذهب جديد في أرض لاتدين بهذا للبدا ولا تأخذ بذلك المذهب . وكان لابد للنشر تعاليم المذهب الفاطمى الشيعى من دعاية واسعة تنفذ إلى قلوب الناس وفق المستويات الفكرية السائدة في تلك المصور . وهل هناك طريق للدعاية لأولئك الحكماء الجدد وما أتوا به من آراء وعقائد أيسر من أشباع البطون وإحاطة الخلفاء بهالة من العظمة والمجد، وأشاعة جو من الفرح والحبور يجعل للناس - وخاصة في العاصمة - لا يرون في ذلك التحول الجديد إلا كل محبب إلى نفوسهم ويطونهم ؟ ؟

وهكذا اتخذت الدولة الفاطمية من الاعياد ولواكب والاسمطة سبيلا للدعاية والنفاذ إلى قلوب الناس وكسب ولأهم ومحبتهم وأعجابهم بالنظام الجديد . هذا في الوقت الذى دأب رجال الفكر من دعاة الفاطميين على اكتساب جماهير الناس من طريق نشر مبادئ المذهب الجديد ، واتخذوا من الجوامع ودور العلم والحكمة مراكز لهذه الدعوة الفكرية . ومن الاعياد التى جرى الفاطميون على اللبانة

في إحيائها ما هو عام بالنسبة للمسلمين جميعا مثل عيد أول العام الهجري وعيد مولد النبي (ص). ومنها ما أدخله الفاطميون في مصر مثل مولد علي بن طالب ومولد الحسن ومولد الحسين، رضى الله عنهم. وكذلك الاحتفال بليلالي الوقود الأربع وهي أول رجب ونصفه وأول شعبان ونصفه، فضلا عن الاحتفال بعيد النذير - أي غدير خم - وهو المكان الذي يقول الشيعة أن النبي (ص) ولي عليا بن أبي طالب عهده فيه وجهه منه بمنزلة هارون من موسى. أما يوم عاشوراء - وهو عاشوراء المحرم - وقد احتفلت به الحكومة الفاطمية احتفالا كبيرا تعطل فيه الأسواق، ويخرج أهل القاهرة إلى الطرقات يسكون وينوحون حزنا على الحسين بن علي الذي استشهد في ذلك اليوم. وكان يعد فيه سباط أطلق عليه اسم سباط الحزن، لا يقدم فيه إلا خبز الشعير والعدس والملحاحات والجبن ونحوها. وهناك من الأعياد التي شهدت القاهرة في العصر الفاطمي ما اتخذ صبغة قومية مثل عيد جبر الخليج - أي وفاة النيل - وعيد النوروز - وهو عيد الربيع -، فضلا عن خيس المهد وهو أحد الأعياد المسيحية، يأتي قبل الفصح بثلاثة أيام، واحتفل به الفاطميون مشاركة للنصارى في أعيادهم^(١).

وقد اعتاد الخلفاء الفاطميون أن يركبوا في مواكب ضخمة يشقون شوارع القاهرة وسط أفراح الناس وزغاريد النساء ومظاهر الزينة. وبمض هذه اللواكب كانت تسمى للواكب العظام، وتتم في أول العام، وأول رمضان، والجمع للثلاث الأخيرة من شهر رمضان، وصلاة عيدي الفطر والاضحى، وجبر الخليج. أما اللواكب الأخرى فقد أطلق عليها القلقشندي اسم اللواكب المختصرة، وكانت تحدث أربع أو خمس مرات في السنة عند ركوب الخلفاء لمناظرهم، ويكون ذلك عادة أيام السبت

(١) القلقشندي: صبح الاعشى ج ٢ ص ٤١٧

والثلاثاء^(١) . وفي بعض هذه اللواكب كانت تسير آلاف الفرسان وصفوف الجبال ،
وعليها الموائد للزركشة تنهادي في شوارع القاهرة ، ويسير إلى جانب الخليفة أحد
كبار رجال الدولة يحمل مظلة الخليفة ، في حين يحف بهما خصيان يطلقون البخور
على جانبي الطريق^(٢) .

واشتهرت أعياد القاهرة في عصر الفاطميين بما كان يقام فيها من ولائم وما يمد
من أسطى صارت مضرب للثل في التاريخ . واشهر الاممطة التي كان يقيمها الخلفاء
الفاطميون هي تلك التي كانت تمتد في أول العام الهجري وفي مولد النبي (ص)
وفي غرة رمضان وفي عيدي الفطر والاضحى . ويكفي للوقوف على ضخامة هذه
الاسمطة ، وما كانت تحويه من كميات ضخمة من ألوان الاطعمة أن نشير إلى أن
السماط الواحد كان يبلغ طوله ٤٠٠ ذراع وعرضه سبعة أذرع ونصف^(٣) . ويذكر
القلقشندي أن السباط الواحد كان يضم إحدى وعشرين جفنة بكل منها واحد
وعشرون خروفا ، وثلاثمائة وخمسون من الطير ، ما بين دجاج وحمام ، هذا عدا
الفطائر والحلوى^(٤) . وبعد أن يفتح كبار القوم السباط ، يباح لعامة أهل القاهرة ،
فيا كلون ملاء بطونهم ، ويسمح لهم بحمل ما تبقى وييمه في الأسواق . وفي مولد
النبي (ص) كان يصنع عشرون قنطارا من الحلوى توزع في الأزهر على عامة
أهل القاهرة^(٥) .

وهكذا عرف الخلفاء الفاطميون كيف يستميلون أهل القاهرة ، عن طريق

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٥٠٣ - ٥٢٠ .

(٢) نامري خسرو ، ص ١٣٦ - ١٤٢ .

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٦٦٢ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٥٢٧ - ٥٢٨ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٥٠٢ - ٥٠٣ .

إشباع بطونهم ، فظل الدعاء للخلافة للفاطمية طالما هي في يسر ، حتى إذا ما أدبرت الدنيا في وجهها ، وساءت أحوالها الاقتصادية ، أنقض عنها كثيرون ، وهذه هي سنة التاريخ .

أما الدولة الايوبية فقد جاءت من الناحية الزمنية بين دولتين انفصلتا بالبدخ وامتازت الحياة الاجتماعية في القاهرة طوالها بالاسراف واللبالسة في أحياء الحفلات ، وهما الدولة الفاطمية والدولة للماليسكية . ولكن دولة بني أيوب أحاطت بنشأتها ظروف غير الظروف التي أحاطت بالدولة السابقة لها أو الدولة اللاحقة بها ، إذ ولدت الدولة الايوبية في وقت صار المصلييون بالشام أشد مايكونون قوة واتساعا ، حتى هدد خطرهم بابتلاع البلدان العربية ليس في الشام فحسب ، بل أيضاً في مصر ، فضلاً عن الحجاز والعراق وبعض أجزاء المغرب . لذلك لم يكن هناك مجال أمام الايوبيين ليحيوا حياة اجتماعية مترفة ، إذ غلبت فكرة الحرب على السلاطين ، وتقلبت عقيدة الجهاد على أحاسيس الناس ومشاعرهم ، مما لم يترك مجالاً للتوسع في الاحتفالات وحياة الترف . وإذا توافر الوقت أحياناً في العصر الايوبي لمباشرة حياة الترف فإن المال لم يتوافر ، لأن حراسة القوافل ، وتحصين المدن ، وشحن القلاع ، واعداد الجيوش ، وبناء السفن والأساطيل ، وصناعة المدد وآلات الحرب . . كل ذلك كان كفيلاً بأن يستنفد آخر درهم في خزانة سلاطين بني أيوب .

وبينا نقرأ في مصادر التاريخ أن أول ما شرع فيه جوهر الصقلي فور تأسيسه مدينة القاهرة هو بناء قصر كبير لمولاه الخليفة للعزدين الله ، إذاً بن شداد يروي عن صلاح الدين أنه « قنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة (١) » . وبينما يحكي القريري عن الخليفة للعزدين الله الفاطمي أنه انجب

(١) ابن شداد : النواذر السلطانية ، ص ٤٤ .

بنتين إحداهما رشيدة وقد تركت ثروة منها مليون وسبعمائة ألف دينار من الذهب،
والأخرى عبدة وقد تركت عددا من خزائن الحلى والصناديق التي تحتوى على
أكياس الزمرد والدناير والثياب الفاخرة (١) ، إذ بنا نسمع عن صلاح الدين أن
الجهاد استنفد كل دينار في خزائنه بحيث لم يترك عند وفاته سوى سبعة وأربعين
درهما من الفضة وجرام واحد من الذهب (٢) .

إلى وصول الخليفة للمزدين الله الفاطمي إلى مصر ، فكان أول ما شرع فيه هو
تعمير القاهرة والعناية بأسواقها وملكاتها ، ورعاية الحفلات وللبالغة في فخاما
للواكب . . . أما صلاح الدين الأيوبي فكان أول ما أهتم به عندما تمت له الأمور
في مصر هو بناء قلعة الجبل وتشيد سور القاهرة واتخاذ كافة الاجراءات لحماية
البلاد والعباد من خطر العدو الصليبي .

وليس معنى ذلك أن الحياة الاجتماعية في القاهرة على عصر بني أيوب صارت
مجدبة كل الجذب ، خشنة كل الحشونة ، خالية تماما من مظاهر الأنوار واليالي
لللاح . إذ الواقع أن الأيوبيين حافظوا على أحياء الاعياد الدينية وغير الدينية ،
ولكن في غير أسراف ودون مبالغة أو تهتك . فالمقريزي عندما يشير إلى بعض
الاحتفالات في العصر الأيوبي لا يترحم لالوان الاباحية وصنوف المنكر التي انتقدتها
في مرارة عند كلامه عن الاحتفالات في العصرين الفاطمي والمملوكي (٣) . ذلك
أن الأيوبيين اقتصروا في الحفلات ، وألغوا بعض ما ارتبط منها بأعياد الشيعة ،
في حين حوروا البعض الآخر ، بما يتفق وإحلال للذهب السني محل للذهب الشيعي .

(١) المقريزي : المواعظ ، ج ١ ص ٤١٥ ، ٤٨٥

(٢) ابن شداد : النواحر السلطانية ص ٢٧ .

(٣) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٤٧

من ذلك مثلاً أن عاشر المحرم - وهو يوم عاشوراء - كان يوم حزن عند الفاطميين ، تنلق فيه الأسواق ، فجعله الأيوبيون يوم فرح يوسمون فيه على عيالهم ، ويصنعون فيه الحلوى ويطنخون الجبوب (١) . وهكذا لم تحرم القاهرة في عصر الأيوبيين من أحياء الحفلات والاعياد ، ولكن في غير تبذل أو إسراف ، فلنسمع عن الاسمطة السلطانية في العصر الأيوبي ، ونسمع أن أول من ركب بشعار السلطنة في القاهرة كان السلطان صلاح الدين الأيوبي نفسه ، ولكننا لنسمع عن الاسراف والبالنة اللتين انصفت بهما الحفلات وللواكب الفاطمية أو المماليكية (٢) .

حقيقة أننا نجد في المراجع إشارات إلى أن بعض خلفاء صلاح الدين بالنوا أحياناً في إقامة بعض الحفلات . من ذلك ما اشتهر به السلطان العزيز عثمان من مد الاسمطة الكبرى لأعيان دولته وموظفيها بين حين وآخر (٣) . كذلك روى عن السلطات الكامل إنه قام حماماً سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧م) بمناسبة ختان ابنه العادل الصغير ، وافق في ذلك السباط أموالاً باهظة (٤) . وتكرر ذلك في عهد السلطان العادل الصغير الذي أقام حماماً في للسبدان الأسود تحت القلعة ذبح لأجله ألف رأس من الغنم ، فضلاً عن البقر والجاموس والإبل (٥) . ولكن هذه كلها كانت حالات فردية ، لا تدبر بحال من الأحوال عن الطابع الغالب على الدولة الأيوبية ، وبخاصة في الشطر الأول من تاريخها .

ومهما يكن من أمر نشاط الحياة الاجتماعية في القاهرة على عصرى الفاطميين

(١) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية في مصر ، ص ٩٩ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر في العصور الوسطى من ٤٠٧ .

(٣) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٤٧ .

(٤) التويرى : نهاية الارب ، ج ٢٧ ورقة ٢٩ (مخطوط) .

(٥) المرجع السابق ، ورقة ٦٣ ، المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

والأيوبيين ، فإن الحقيقة الكبرى التي لا يرقى إليها شك هي أن القاهرة في عصر سلاطين المماليك شهدت ازدهار حلقاء، نشاطها الاجتماعي وغير الاجتماعي في العصور الوسطى . حقيقة أن سلطنة المماليك قامت عند منتصف القرن الثالث عشر الميلادي وخطر التتار قد ابتلع فعلا بلاد الشام وبلغ غزوة مهددا بابتلاع مصر ووادي النيل . هذا بالإضافة إلى خطر الصليبيين الذي كان لا يزال راجعا على أرض الشام عند قيام سلطنة المماليك . ولكن المماليك استطاعوا في مستهل دولتهم كسر شوكة التتار وطردهم نهائيا من بلاد الشام والوقوف لهم بالمرصاد لردعهم كلما حدثتهم أنقسام بعبور نهر الفرات لتهدد الشام . أما الخطر الصليبي فقد صار أضعف من أن يشكل خطرا حقيقيا على المماليك ودولتهم ، ولم يلبث سلاطين المماليك في مدى أربعين عاما من قيام دولتهم أن قوضوا أركان البناء الصليبي بالشام ، واستولوا على اللد والعاقل الصليبية واحدة بعد أخرى حتى انتهى الأمر بطرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام سنة ١٢٩١ (١) .

وهكذا لم تشعر القاهرة وأهلها في عصر سلاطين المماليك بإحساس الخطر الذي أحسوه في عصر الأيوبيين . ويكاد لم يخل يوم في ذلك العصر إلا وشهدت القاهرة حفلا أو موكبا ، لاستقبال سلطان وقد عاد من الشام منتصرا على التتار أو على الصليبيين (٢) ، أو احتمال بشقاء سلطان من مرض ألم به (٣) ، أو إحياء لميسد أو لمناسبة دينية أو قومية (٤) أو لمشاهدة موكب السلطان وقد نزل من القلعة في طريقه إلى سرحة الصيد أو ملعب الكرة أو شاطئ النيل طلبا للراحة وتنوير الهواء (٥) . وفي جميع

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ٥٩ وما بعدها .

(٢) القرينى : السلوك ج ١ ص ١٣٨

(٣) تاريخ ابن الفرات ، حوادث ٧٩٩ هـ

(٤) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٧٤

(٥) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٨٦ - ٨٧ .

هذه للنسبات كانت القاهرة كلها تلبس حلة زاهية مشرقة ، فيقوم اصحاب الحوانيت بتبييضها وتزيينها، وتصطف للناس في النساء في الدكاكين ، وتفرش الشوارع بشقق الحرير ، وتضرب الكوسات بالقلمة والطبلخانات بدور الأمراء . ويتبارى الناس في إقامة أقواس النصر — التي عرفت باسم القلاع — في الشوارع ، وفي الليلة السابقة للموكب يخرج الناس إلى الشوارع الرئيسية التي يمر بها موكب السلطان لاستئجار الأماكن التي يقضون بها الليل استعدادا للفرجة في اليوم التالي . وهكذا تقضى القاهرة ليلتها مضادة بالشموع والقناديل ، وتختلط فيها أصوات للناس بدق الدفوف وزغاريد النساء ودعاء الرجال (١) . فإذا مر يوم على القاهرة دون الاحتفال بعيد ديني أو قومي أو بموكب سلطاني ، فإنه كان لا يخلو غالبا من احتفال عائلي فهذا شوار عروس تحمله الجمال والبغال التي قد يصل عددها إلى ثمانمائة جمل وستة وثلاثين قطارا من البغال تشق شوارع القاهرة في موكب حافل إلى منزل الزوجية (٢) وهذا رجل شقي من مرضه فاتجه إلى الحمام وسط موكب من الأهل والأحباب التقوا حوله ابتهاجا بشفاؤه (٣) . وهذه منسية شهيرة تنفي في مكان معين ، فيتدافع أهل القاهرة صوب ذلك المكان للاستمتاع بصوتها وغنائها (٤) .

على أنه إذا كانت الحياة الاجتماعية في القاهرة قد بلغت ذروة نشاطها في المصور الوسطى على أيام سلاطين المماليك ، فإن ذلك يستدعي منا وقفة قصيرة لنفیر أسباب هذه الظاهرة . وهنا يصح أن نشير إلى أن نشاط الحياة الاجتماعية في أى مجتمع

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٦٥ ؛ ابن كثير ، البداية ج ٤ ق ٢ ص ٢١٦ .

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ ص ٤١٨

(٣) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧

(٤) السخاوى : الضوء اللامع ج ١٢ ص ٣٣ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٨٤

إنما يتوقف على طبيعة هذا المجتمع وخاصة من ناحية حجمه وبنائه ومدى ثرائه . فإذا نظرنا إلى القاهرة في عصر سلاطين المماليك من هذه الزوايا الثلاث وجدناها قد استوفت جميع أركان النشاط الاجتماعي الحبيب . فمن ناحية الحجم ، فافتتحت القاهرة في عصر سلاطين المماليك مثيلاتها من مدن العالم من حيث السعة وكثرة السكان . وحسبنا أن ابن بطوطة — وهو الرحالة الذي طاف بمعظم أركان العالم المعروف في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) — وصف القاهرة بأنها « أم البلاد المتناهية في كثرة المارة ، المتباهية في الحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط الضعيف والقادر ، بهما ما شئت من عالم وجاهل وجاد وهازل ، تتسوج موج البحر بسكانها وتكدأ تضيق بهم على سعة مكانها (١) » وذكر جيهان تود الذي زار مصر سنة ١٥٢٢م أن القاهرة تبلغ ثلاثة أمثال باريس (٢) ، في حين قال برنارد دي برينباخ أنه لا يعتقد في وجود مدينة أخرى في العالم كله تضاهي القاهرة في كثرة سكانها والساعها وعظمتها وثروتها ، وأن جميع سكان إيطاليا لا يظاهون في الكثرة القاهرة وحدها (٣) .

أما عن بناء مجتمع القاهرة في ذلك العصر ، فكانت غالبية سكانها من المواطنين ومن هؤلاء كان العلماء والتجار وأصحاب الحرف والعمالة من المسلمين وأهل الذمة سواء ولكن امتازت القاهرة في عصر سلاطين المماليك باكتظاظها بالمماليك — وهم الطبقة الحاكمة السائدة في البلاد — ومعظمهم من الترك ثم الجركس . هذا كله فضلا عن الأجانب من التجار والسفراء والرحالة وغيرهم الذين وفدوا على مصر من مشارق الأرض ومغاربها ومن البلاد الإسلامية والمسيحية سواء .

(١) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ص ٦٧ .

(٢) Carré : Voyageurs et Ecrivains Français en Egypte, 8. 4.

(٣) Clerget : Le Caire, Tome I, pp.152—153

وأخيرا ، فإن القاهرة صارت عاصمة العالم التجارية فى عصر سلاطين المماليك ، بعد أن انسدت طرق التجارة العالمية الكبرى بين الشرق والغرب فى ذلك العصر نتيجة لوقوع معظمها تحت سيطرة التتار ، وبقي طريق مصر والبحر الأحمر وحده بعيدا عن تهديدهم ، الأمر الذى مكن سلاطين المماليك من احتكار تجارة الشرق وخاصة تجارة التوابل . وهذا عاد عليهم وعلى مصر بثروة فائقة ، ظهرت صورتها فى مجتمع القاهرة فى ذلك العصر (١) .

وكان أن اكتظفت القاهرة فى عصر سلاطين المماليك بالقصور والمنشآت الدينية كالجوامع والزوايا والمدارس ، والمنشآت الاجتماعية كالسبل والبيمارستانات والحمامات والمؤسسات التجارية كالأسواق والفنادق والوكالات . وعنى سلاطين المماليك بتجميل عاصمتهم وكنس شوارعها ورشها بالمياه من أجل إثارة الأتربة (٢) . وأمر أرباب الحوانيت بأن تكون عند أبواب حوانيتهم أزيار مملوءة بالماء لتسهيل إطفاء ما يحدث من الحرائق (٣) واختص المشاعلية بأسريرة البيوت والحمامات وخزاناتها فقاموا على نزعها وتنظيفها بين حين وآخر (٤) . كذلك أمر بعض السلاطين — مثل بيبرس وبقون — بإخراج البرصاء والمجذومين من القاهرة ، واندروا من يظل منهم داخل أسوارها بالقتل (٥) . وهذا فضلا عن عنايتهم بتطهير العاصمة من الكلاب لأنها من الحيوانات المكروهة لنجاستها ، فأمروا بامسكها وتذيتها بعيدا خارج المدينة (٦) .

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢٨٤ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ٤ ص ٦٦٧ .

(٣) المقرئى : المواعظ ، ج ٣ ص ١٧٤ .

(٤) أبو المعاسن : التجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٤٨ .

(٥) تاريخ ابن القرات ، حوادث سنة ٧٩٤ هـ ، العيني : عقد الجمان سنة ٦٦٤ هـ .

(٦) ابن حجر : أنباء الفجر ، ج ٦ ص ١٢٥ .

وهكذا رأت القاهرة مجتمعا صاخبا في عصر سلاطين المماليك ، بالإضافة إلى الاحتفالات وللواكب العديدة التي سبق ذكرها ، اتسفت الحياة اليومية في شوارع القاهرة بكثرة الباعة الجائلين ، وأصحاب الحرف الصغيرة كالحلاقين الذين يطوفون الشوارع ومراياهم معلقة في رقابهم يصيحون بأصوات مرتفعة ليسمعهم الراغبون في قص الشعر والزينة^(١) . هذا عدا اللارة من النساء اللاتي تمتعن بحرية واسعة في الخروج من بيوتهن ، فكن يترددن على الأسواق لشراء ما يلزمهن ، أو يترددون على الحمامات العامة لاستكمال زينتهن ، وهناك يأنسن ببعضهن ويقضين الساعات الطوال بتناقل أخبار البيوت وأسرار العائلات^(٢) . يضاف إلى ذلك كله كثرة الدواب ، فالحيول اللطيفة يركبها المماليك وقد ارتدوا ملابسهم للزركشة ، وأخذوا يركضون وسط الدروب والأسواق للزحمة وهم يضربون الناس عنقه ويمسرة ليفسحوا لهم ، غير مبالين إذا سقط بعض اللارة تحت حوافر خيولهم^(٣) والجمال العديدة تحمل القرب ويطوف بها السقاؤون على المنازل والأسواق لامدادها بما يحتاج إليه من الماء . وقد قدر البلوى للفرنج هذه الجمال في القاهرة في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) بمائتي ألف جمل^(٤) . أما السقاءون فقد بلغ عددهم خمسة آلاف سجلوا أسماءهم عند المحتسب وقاموا بدفع ضريبة معينة للحكومة مقابل السماح لهم بالتجارة في ماء النيل^(٥) . أما الخمر فبليت عددا كبيرا لأنها قامت في القاهرة عصر المماليك بدور سيارات الأجرة ، فعنى أصحابها برسمها وتطعيمها ، وقدر ابن بطوطة

Tafur : Travels, p. 101. (١)

(٢) سيرة الظاهر بيبرس ج ١ ص ٦٦ ، ابن الحاج : الدخول ج ٣ ص ٢٧٣ .

Schefer : Le Voyage d' Outremer, p. XXX III (٣)

(٤) رحلة البلوى للفرنجي ، ص ٥٥ .

Dopp.: Le Caire Vu, Tome 23, p. 144. (٥)

عدد للكارينين في القاهرة بثلاثين ألف مكارى (١) .

وإذا كان أهل القاهرة في عصر سلاطين المماليك قد تعرضوا أحيانا لبعض الضيق والشدائد نتيجة لتسلط طائفة المماليك على عامة الأهالى من المصريين (٢) ، أو نتيجة لضيق اقتصادى بسبب انخفاض النيل وما ينجم عنه من ارتفاع الأسعار وانتشار الوباء (٣) ، أو نتيجة لفتنة بين طوائف المماليك وعصبياتهم (٤) فإن هذا كله لم يفقد أهل القاهرة روح الرجاء التى عرفوا بها فى كل زمان ومكان . وقد تعددت وسائل التسلية والترويح عن النفس عند أهل القاهرة في عصر المماليك ، منها خروج الناس إلى الحدائق وللتنزهات والبرك مثل الازبكية وبركة الحبش وبركة الرطلى وغيرها (٥) . وكان نهر النيل دائما ملهى أهل القاهرة ، فزرعوا الحدائق على شواطئه واستأجروا القوارب والسفن فيه ، وخاصة في فصل الصيف (٦) .

وبالإضافة إلى ذلك فقد عرف أهل القاهرة خيال الظل واعتبروه تسلية شعبية (٧) هذا كله فضلا عن الألعاب التى تلهى بها الناس والتى اتخذ بعضها طابع للتمارة ، مثل تطيير الحمام وللناطحة وبالكباش وللناقرة بالدبوك فبراهن الشخص على هذا أو ذاك من الكباش أو الدبوك ، فإذا ما زكسب الرهان (٨) كذلك عرفت

(١) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ص ١٧ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٩٢ ، ج ٥ ص ٤٠١ .

(٣) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٥٠٧ — ٥٠٨ .

(٤) سيرة الظاهر بيبرس ج ٤٩ ص ٢٠ ، السلوك ج ٣ ص ١٦٤ .

(٥) المقرئى : المواعظ ج ٣ ص ٢٤٧ وما بعدها .

(٦) ابن الحاج : المدخل ، ج ١ ص ٢٤٦ ، المقرئى : المواعظ ج ٣ ص ١٣٣ .

(٧) ابن أياس : بدائم الزهور ، ج ٢ ص ٣٤٧ .

(٨) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٧٥٤ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٤١ .

القاهرة في ذلك العصر ألعاب البهلوانات والحواة والدبابة الذين يعجلون بالديبة والقرادة الذين يلعبون بالقروذ^(١) . وهكذا اكتسبت القاهرة في ذلك العصر شهرة واسعة في اللهو والترح ، حتى أن الناصر ابن صاحب اليمن عندما أراد العودة إلى بلاده سنة ٧٥٥ هـ بعد أن قضى بمصر بضعة أشهر « أخذ معه كثيرا من الصنائع والسائر وأرباب الملاهي^(٢) » .

على أن حب أهل القاهرة للروح واللهو لم يقلل أبدا من السعة الدينية الواضحة التي انصفت بها القاهرة ومجتمعها في عصر سلاطين المماليك . وحسب القاهرة في ذلك العصر أنها صارت مقر الخلافة العباسية بعد أن سقطت في بغداد على أيدي التتار ، الأمر الذي جعل القاهرة محورا لنشاط ديني فذ ، تشهد عليه كثرة المنشآت الدينية اضخمه مثل الجوامع والربط والزوايا والمدارس وغيرها^(٣) وترجع أفخر العمار الإسلامية التي تزدان بها القاهرة اليوم إلى عصر سلاطين المماليك بالقدات .

ويميل بعض الكتاب والباحثين إلى القول بأن مجتمع القاهرة على عصر سلاطين المماليك كان ذا وجهتين ، أو بعبارة أخرى كان مزدوج الشخصية ، ظاهره التقوى والتدين وباطنه الاتم والفساد . ذلك أن طبيعة المماليك وحكمهم ونظامهم ، فضلاء روح العصر نفسه ، كل ذلك ساعد على انتشار كثير من الأمراض الخلقية مثل الزنا والشذوذ الجنسي وتماطي الحشيش والخمر والرشوة وغيرها . ومهما يقال من أن موجه الانحلال الخلق سادت بقية البلاد الإسلامية في تلك الحقبة من التاريخ ، فإننا

(١) سيرة الظاهر بيبرس ، ج ٩ ص ٤١ ، المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٦٤٢ ،

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ٣ ص ٢٧ .

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى في عصر السلاطين المماليك ص ١٥٣

وما بعدها .

نرى أن المماليك أنفسهم مسئولون إلى حد بعيد عن تفشى الأمراض الخلقية في القاهرة طوال مدة حكمهم لها . فالسلطان برقوق الذى وصفه المؤرخون بحب الخير والعلم واحترام الفقهاء ، لم يتحرج من ارتكاب الفواحش وتقريب « المماليك الحسن لعمل الفاحشه فيهم^(١) ويبرم المقريزى فى مكان آخر من كتابته عن هذه الظاهرة الخطيرة فيقول بأنه « نفى فى أهل الدولة محبة الذكران » ، ومن الواضح أنه يقصد بأهل الدولة طبقة المماليك بالذات^(٢) أما عن الحشيش فقد انتشر تعاطيه فى القاهرة على عصر سلاطين المماليك ، وعبر عن ذلك المقريزى بقوله « نشت هذه الشجرة الحبيثة فى وقتنا هذا فشوا كبيرا ، ولوح بها أهل الخلاعة والسخف ولوها كثيرا وتظاهروا بها من غير احتشام^(٣) » واشتهرت أرض الطبالة بالقاهرة بزراعة الحشيش فى ذلك العصر ، كما اشتهر به باب اللوق^(٤) . ولم تكن الخمر أقل انتشارا من الحشيش بين مختلف طبقات الناس فى القاهرة على عصر سلاطين المماليك . وقد ابتكر بعض أمراء المماليك أنواعا مستحدثة من الخمر نسبت إليهم مثل التمر بناوى نسبة إلى الأمير تمرينا والبشتكى نسبة إلى الأمير بشتك ، كما عرف فى عصر المماليك نبيذ الثعز ويعمل من لبن الخيل . وقيل عن السلطان فرج بن برقوق أنه كان أحيانا يشق عوارق القاهرة وهو لا يكاد يثبت على فرسه من شدة السكر^(٥) . وكان من الطبيعي أن ينتشر شرب الخمر بين عامة المصريين فى القاهرة ، حتى أصبحت الخمر

(١) المقريزى : السلوك ، ج ٣ ص ٥٢٣ .

(٢) المقريزى : المواعظ ج ٣ ص ١٦٩

(٣) المرجع السابق ج ٣ ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .

(٤) المرجع السابق ج ٣ ص ٣٠٤ — ٣٠٩ .

(٥) المقريزى : ج ١ ص ٦٠٧ ، ج ٣ ص ٧٤١ ، ابن حجر : إنباء الفهرج ج ١ ص ٣٨١

(٦) أبو المعاسن : النجوم ج ٦ ص ٢٥٠ ، ابن حجر : إنباء الفهرج ج ٢ ص ٢٧ .

متمة للنمى فى الحفلات والافراح (١) . وكذلك انتشر البناء فى القاهرة على عصر
ملاطين المالك ، حتى وقت البناء بالاسواق تحت عين المارة ، واعترف به
الدولة ففرضت عليهم ضرائب مقررة (٢) .

لا شك فى أن نشو هذه الأمراض وغيرها فى مجتمع القاهرة على عصر ملاطين
المالك إنما كان نتيجة طبيعية لاكتظاظ مدينة كبيرة مثل القاهرة بالسكان، ووفود
نسبة كبيرة من الاغراب إليها ، وقيام طبقة حاكمة حديثة همد بالاسلام بالاشراف
عليها ، فضلا عن الثروة الكبيرة المناجاة التى هبطت على ذلك المجتمع ولما اعتبرها
ابن خلدون مسئولة عن تلك الانحرافات (٣) .

ولكن هذه الانحرافات لم تغير أبدا من الطابع العام للقاهرة ، وهو الطابع
الذى عبر عنه السيوطى فى عصر المالك بأنها « صارت محل سكن العلماء ومحط
رجال الفضلاء » (٤) .

دكتور

سميد عبد الفتاح عاشور

استاذ كرسى تاريخ المصور الوسطى

كلية الآداب — جامعة القاهرة

(١) القرىزى : السلوك ج ٣ ص ٤٢٦ .

(٢) القرىزى : السلوك ، ج ٣ ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤١٨ .

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .

[illegible]